

مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

- الفصحى أم العامية؟
- معيقات الإصلاح التربوي
- الكفايات والتربية على القيم
- المقاربة بالكفايات وتمثلات المتعلم
- منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي
- عودة إلى تعريف الديداكتيك أو علم التدريس



العدد السابع والأربعون - مارس 2011

المبادئ الرئيسية للمقاربة الموجهة

تقديم وتعريب: محمد حابا

تقديم

في خضم انكباب السلطات التربوية على تنزيل مقتضيات البرنامج الاستعجالي وخاصة المشروع E3.P7 الذي ينص في أحد تدابيرها على إشراك مختلف الفاعلين في عملية التوجيه التربوي، وفي أفق فتح ورش مراجعة البرامج والمناهج التربوية، تأتي هذه المقالة التي قمنا بترجمة بعض عناصر مضمونها بتصرف، والواردة بالصفحات من 23 إلى 31 من كتاب « L'approche orie - tante : la clé de la réussite scolaire et professionnelle » الصادر سنة 2004 عن دار «Septembre éditeur» لمؤلفه «Denis Pelletier»؛ تأتي لتوضح، انطلاقاً من التجربة الكندية، إلى أي حد يمكن أن يكون المدرسون والآباء وشركاء المدرسة فاعلين أساسيين في عملية التوجيه، وإلى أي حد يمكن أن تكون المناهج التربوية قناة ناقلة لمختلف الكفايات المساعدة على الاختيار الدراسي والمهني. ويعتبر «Denis Pelletier» أستاذ علوم التربية بجامعة Laval الكندية لما يربو عن 30 سنة، أحد المختصين في مجال التوجيه حيث ساهم بشكل فعال في بناء برنامج التربية على الاختيار بكندا، حيث كان مديراً لفريق البحث «من أجل مقاربة موجهة للمدرسة الكيبكية» سنة 2001.

من التوجيه إلى الفعل

تتموقع المقاربة الموجهة ضمن النموذج النظري النمائي (Paradigme évolutif)، فهي تمثل إلى حد ما كل ما سيقدمه المتدخلون من مختلف الأوساط (التربوية والسوسيواقتصادية) انطلاقاً من نظرتهم الخاصة والأهداف التي يسعون لتحقيقها محلياً. ورغم ذلك، ولاعتبارات عملية، فإنه من الضروري إعطاء تعريف يمكن من تأطير هذا المفهوم غير الواضح.

انبثقت فكرة المدرسة الموجهة من تنامي الحاجة إلى ضمان ودعم النجاح التربوي للتلاميذ بقدر كبير من الفعالية، وذلك عبر إعطاء معنى أكثر لتعلماتهم من خلال ربطها بعالم الشغل وبمساراتهم الخاصة في التوجيه. حيث أن ربط التعليمات بسوق الشغل يظهر قيمتها وفعاليتها، كما أن ربطها بمسارات التوجيه يمنح التلميذ دافعا شخصيا وخصوصا للتعلم. إن المسلمة التي نستخلصها تتجلى في أن المتعلم ستصبح له حافزية أكبر للنجاح إذا امتلك القدرة الكافية على تقدير القيمة المستقبلية للتكوينات الحالية التي يتابعها، وستمنح له الفرصة طيلة مشواره الدراسي لفهم العلاقات المعبرة القائمة بين المادة المدرّسة وامتداداتها في عالم الشغل، كما أن المدرسين سيصبحون بهذا المعنى «موجهين» من خلال أعمالهم لمبدأ التطعيم في المواد التي يدرسونها.

مبدأ التطعيم:

يقضي هذا المبدأ أن يدمج المدرس في مضامين دروسه إشارات حول المهن وعالم الشغل، مما يشكل قيمة مضافة لعمله. إذ أن تدريس مفهوم ما من خلال موضعيته في سياق الواقع المهني يساهم، في واقع الأمر، في التحكم فيه بشكل أكبر مقارنة مع معرفة المهنة ذاتها، والتي تصبح موضوع استكشاف حقيقي من طرف التلاميذ الذين يعتبرون أنفسهم معنيين بذلك. وبهذا المعنى يصبح التطعيم مبدأ بيداغوجيا أكثر منه مهنيا. يبقى أن تضاعف الوضعيات، دون عمل تكرار أو آلي، هو الكفيل بخلق التناغم المطلوب بما يؤدي إلى ترسيخ التوجه نحو المستقبل.

إن اندماج ما هو مهني بما هو مدرسي سيشكل فرصة لمنح دور للتوجيه المدرسي وهو الذي ظل إلى حدود الآن بدون أهمية. وهكذا فعوض أن ينطلق التلميذ من اهتماماته المهنية لاختيار نوع التكوين الموافق والمطابق لها، يمكنه التفكير في اختياره المهني انطلاقاً من تجربته المدرسية، ومن حالات الإشباع المعاشة، والأهداف المحققة في سياق التعليمات.

تقوم سيرورة (démarche) التوجيه المدرسي على مراكمة معالم المستقبل المتضمنة في التجارب المعاشة من داخل المواد الدراسية بغية بلوغ التكوين والحياة المهنية التي تتفرع عنها، فالمعالم التي ينبغي اكتشافها في هذه الحالة توجد في حاضر وواقع التلميذ، حيث تصبح أكثر وضوحاً وجلاءً ويصبح تقييمها أكثر سهولة، بما في ذلك الحكم على الجهود المبذول لبلوغها وقيمة النتائج المحصل عليها.

إن المضمون المهني للمواد الدراسية يضع التلميذ في وضعية انفتاح على مختلف الإمكانيات المهنية، كما ينمي مهارات البرهنة بحيث تؤدي التجربة المدرسية إلى التجربة المهنية، وهو أمر غير مألوف باعتبار أنهما في أغلب الأحيان في قطيعة، ويتم التفكير فيهما في فترات متفاوتة.

وهكذا فمبدأ التطعيم يقدم للتوجيه قيمة مضافة تتمثل في التفكير المهني الذي ينمو بتطور المسار الدراسي للتلميذ تحت التأثير التراكمي للإشارات المتعلقة بعالم الشغل.

مبدأ التعاون

يفرض إدماج المقاربة الموجهة في المشروع التربوي للمدرسة مشاركة مجموع شركاء التربية، إذ لا يمكننا الحديث عن مبدأ تطعيم المواد الدراسية بمختلف مكونات الوسط المهني بمعزل عن المدرسين، فهم بطبيعة الحال المتعاونون الأساسيون بالدرجة الأولى، كما يجب عليهم التعاون فيما بينهم من أجل توفير الشروط الضرورية للتطعيم.

فالبعض منهم يرغبون في تنظيم لقاءات من أجل بناء مشاريع تشمل العديد من التخصصات، أما مستشارو التوجيه والمختصون في الإعلام المدرسي والمهني فهم يسعون من أجل تحقيق تناغم المواضيع المهنية مع الكفايات التدريسية. واختصاراً، يمكن القول أن المدرسة الموجهة عمل تشاوري.

كما يتوجه مبدأ التعاون إلى الآباء أيضاً، إذ لا ينتظرون إلا السماح لهم بتقديم الدعم وإن كانوا لا يعلمون كيفية ذلك. فباعتبارهم أشخاصاً-مصادر، يمكنهم تقديم شهادات حول تجاربهم العملية أمام التلاميذ بشكل عام، سواء داخل الفصول الدراسية أو أثناء حصص الإعلام المنظمة من طرف المؤسسة التعليمية. أما بصفتهم آباء، فيمكنهم أن يكونوا مصادر دعم وتحفيز لأطفالهم، ولو عبر مقارنة تمثلاتهم حول العمل مع تمثلات الأجيال الجديدة، أو بالتحاور حول دواعي ومبررات الإقبال على العمل في الماضي والحاضر. فالآباء والشباب

يمكنهم تقاسم فكرة المستقبل، وهو الأمر المرغوب فيه بشكل كبير من طرف الجميع. يبقى مبدأ التعاون مطلوباً وواجباً أيضاً بين المدرسة والمجتمع، وخصوصاً مع الهيئات الاقتصادية المكونة من ممثلي عالم الشغل ومن المنظمات الوسيطة كغرف التجارة والنقابات والجمعيات المهنية.

يفرض التصور الموجه على المدرسة البحث عن الشراكات بالنظر لمجموعة من الأسباب و العوامل، فظالما أن واقع الشغل يكمن في التجارة والمقاولات والهيئات العمومية وشبه العمومية من مختلف القطاعات، فإن الوصول إلى المعلومة الحية الناطقة يتم من خلال الملاحظة المباشرة، وذلك اعتماداً على مجموعة من الروابط مثل: زيارة المقاولات، تداريب، التكوين بالتناوب بين العمل والدراسة، أيام المهن، الأبواب المفتوحة.....

إن المقاولات والمدارس ليست مؤسسات متعارضة، بل هي مدعوة للعمل المشترك. فالتكوين المستمر الذي يلي التكوين الأساسي ينبغي أن يمر في العقود المقبلة داخل محيط العمل. وكخلاصة، فإنه ينبغي النظر إلى المدرسة والمقابلة كموارد تربوية.

يسمح مبدأ التعاون بولوج مختلف هذه الفضاءات الموجودة خارج المدرسة بشكل يساعد التلميذ على توسيع إحساسه بالانتماء وتسهيل مسار انخراطه.

مبدأ التعبئة

رغم أهمية مبدأي التطعيم والتعاون إلا أنهما غير كافيين لدعم وترسيخ المقاربة الموجهة. إذ بإمكاننا اقتراح روابط وعلاقات بين المواد الدراسية والمهن، وبين الحياة الدراسية وحياة العمل، وتنظيم المعارض والزيارات وتقديم الشهادات...، لكم مع ذلك تبقى المقاربة الموجهة دون فاعلية إذا لم يكن التلميذ مهتماً بتوجيهه، وإذا لم يكن محفزاً على الاختيار، وعلى المشاركة في أنشطة الاستكشاف.

إننا هنا بصدد طرح سؤال أساسي: ما العمل لجعل التلميذ مهتماً بمستقبله ومنخرطاً في مسار شخصي؟ ما الذي يمكنه من الانتقال إلى نمط هوياتي مسؤول؟ إن سيرورة التوجيه، وكما تؤكد العديد من الدراسات، تفترض في المنطلق امتلاك اتجاه محفز.

يعني مبدأ التعبئة في هذا المقام نهج طريقة للتدخل لدى التلميذ بإمكانها إيقاظ رغبته في النجاح والتوجيه، إن السؤال المطروح في هذا الإطار هو: كيف يمكن جعل التلميذ يتعبأ بنفسه من أجل مستقبله؟

يهدف هذا المبدأ إذن إلى إثارة الحافزية لدى التلميذ تجاه مساره التوجيهي. فإذا أمكن تأويل الميل لنشتق منه مفهوم النداء، فما هو إذن مصدره؟ وماهي شروط حدوثه؟ وما هو المطلوب القيام به قبلها للمساهمة في انبثاق وبعث سيرورة التفتح والانتباه. إننا نسعى بذلك إلى فهم دواعي ظهور الاتجاه المحفز.

الاتجاه المحفز:

الاتجاه المحفز (Attitude motivée) ميل عام لدى الأشخاص للعمل بالمشروع طيلة حياتهم، وذلك من خلال بناء وتحقيق المشاريع. هذا الميل يوصف بكونه تجميع لمكونات ثلاثة هي: القدرة الذاتية، الرغبة في النجاح ثم المنظور الزمني. إن معرفة هذه المكونات الثلاث تمكن من فهم تكاملها، حيث أن غياب إحداها تنتج عنه صعوبة في التوجيه قد لا يمكن تذليلها بسهولة. كما أن حضورها بشكل جماعي يضع الفرد في حالة قصدية ومحفزة. وباختصار يمكننا القول أنه بهذا المنظور الجديد سيكون بإمكاننا تقدير مدى ملاءمة مبدأ التعبئة.

القدرة الذاتية:

لكي تكون هناك رغبة في التوجيه، ينبغي كحد أدنى الإيمان بإمكانية التصرف تجاه المحيط، والقدرة على ممارسة نوع من التأثير على الوضعية الحالية والمستقبلية. إن الفرد الذي ينظر إلى ما يحدث له على أنه نوع من الحظ أو الصدفة أو القدر، أو على أنه مرتبط بقوة الآخر أو لا يمكن توقعه إطلاقاً، فهذا الفرد لن يمتلك أية قابلية للتوجيه والرغبة في النجاح، بل عكس ذلك، فاعتقاده هذا يدفعه إلى الجمود والاستسلام.

تقوم الحافزية للنجاح في الحياة المدرسية والمهنية على مدى إدراكنا لمسؤوليتنا عن نتائج ومردودية الأعمال التي قمنا بها والجهود التي بذلناها.

لكي يكون النشاط محفزاً، فهو يفرض على التلميذ أن:

يعتقد بقدرته على الفعل في وضعيات يبقى جزء منها غير متوقع؛

يعترف بقدرته على إنجاز أفعال تتسم بقدر كبير من الفعالية؛

يعتبر نفسه قادراً على تحقيق جزء مهم من أهدافه بالاعتماد على مهاراته وقدراته.

فكلما وضع التلميذ في وضعية الاختيار والفعل، أو طلب منه حل إشكالات والتعبير عن رأي، أو ممارسة حكم نقدي وتقدير مكتسباته وتعلماته، فهو أثناء كل ذلك يقوم بتجريب قدرته الذاتية. فوضعيته كذات مسؤولة تجاه النتيجة المحققة، وملتزمة تجاه نفسها في كل

فعل يقوم به، تجعل منه شخصا مهيباً للنجاح، طالما أنه قادر على أن ينسب لنفسه الجدارة والاستحقاق، والإرادة في بلوغ مردودية أفضل وارتياح أكبر.

الرغبة في النجاح؛

إن اعتقاد الفرد في قدراته الذاتية يجعله مهيباً لوضع الأهداف ورفع التحديات، ويصير بذلك معبئاً بفضل رغبته في الإنجاز. وإذا أمكن تعريف الرغبة في النجاح على أنها طموح لتحقيق أهداف مطابقة لمعايير التميز، فإن المعيار المقصود هنا لا يتناسب بشكل فوري مع حالة مطلقة، بل مع مستوى معين من الصعوبة يعطي الانطباع بالتقدم والتحكم أكثر في الموارد المطلوبة.

إن الأشخاص الذين يمتلكون الرغبة في النجاح؛
يضعون لأنفسهم أهدافاً تتضمن الحد الأدنى من التحدي؛
يتصرفون بشكل مناسب لتحقيق الأهداف؛
يثابرون بما فيه الكفاية لتجاوز الحواجز والمعوقات.

ليست الرغبة في النجاح مجرد تمن بمحاكاة شخص ما، وليست مجرد رغبة في أن يصير الفرد شخصاً غنياً ومشهوراً، بل هي، على النقيض من ذلك، رهينة سلوكيات وجهود حقيقية. فالقدرة الذاتية والرغبة في النجاح تغذيان الشعور بالفعالية، وتقدير الذات والاستعداد للتكوين الذاتي.

كلما أمكن إنهاء نشاط موجه بهدف ينبغي اتباعه، أو بغاية ينبغي تجربتها، أو بعمل مرتبط بحالة مرغوب فيها، فإنه يصبح حينئذ، بحق، نشاطاً موجهاً لأنه يجعل التلميذ منخرطاً في المشروع، وهذا أمر مهم جداً لنجاحه داخل الفصل وفي العمل.

تصور المستقبل؛

يندرج الفعل المحفز ضمن سيورة زمنية. فبين الوضعية المعاشة حالياً والحالة المرجوة، تتوقع مجموعة من الأفعال والأحياز الزمنية الضرورية لإنجازها. بذلك يكتشف التلميذ أن المستقبل مرجع ينبغي أخذه بعين الاعتبار في الاختيارات الآنية. فكل ما هو جيد في الحاضر ليس هو بالضرورة كذلك في المستقبل، وكل هذا قد يؤثر بكامل ثقله على القرارات التي يمكن اتخاذها. إن التلميذ بإمكانه منح الكثير من الأهمية لما يمكن تحقيقه، أكثر من اهتمامه بواقعه الحالي. فهو بذلك يقبل بالتفكير على المدى البعيد من أجل تحقيق ربح أكبر، بشكل يؤدي إلى مستقبل مختار ومفكر فيه أكثر مما هو مفروض.

وهكذا، فكلما فرض على التلميذ تقدير المسافة التي تفصله عن المهنة التي يحلم بممارستها أو التساؤل حول المسار الدراسي المؤدي إليها، يصبح مدعوا لترويض تصوره عن المستقبل وعلاقته بتدبير الزمن الحالي.

إن معرفة النظام المدرسي ومساراته الممكنة، والشروط المطلوبة لولوج مختلف التكوينات، والتعلمات الاستراتيجية والأدائية الضرورية لبلوغ ما نسعى إليه، واعتبار مدة الدراسة المطلوبة للحصول على شهادة ما... تشكل كلها فرصا لأخذ البعد الزمني بعين الاعتبار. فكل فرصة تتاح للتلميذ للتعبير عن ذاته، أو تحرير إنشاء حول جانب من واقعه المعاش، تذكره بأهمية الزمن والهوية. وهكذا، فإن تناسق الماضي والحاضر والمستقبل ليس مهارة فطرية بل كفاية يكتسبها التلميذ من خلال ممارسة الاستباق وعرض القريب والبعيد أمامه، والتميز بين ما هو متوقع وقابل للمراقبة والتحكم مما هو على خلاف ذلك.

إن القدرة الذاتية والرغبة في النجاح والمنظور الزمني تكون جميعها ما يصطلح عليه الاتجاه المحفز. إنها تقترب من قوة الأنا والاستقلالية المبحوث عنها في المجال التربوي، والتي تمنح الفرد وضعية الذات القادرة على التعلم والتوافق والاختيار والفعل.

فالمدرسة وهي تضع نجاح جميع التلاميذ في قلب مهمتها التربوية، لا يمكنها تأهيل التلاميذ إذا لم تمنحهم في نفس الوقت فرصة بناء وتحقيق مشاريع مرتبطة بتكوينهم وهويتهم. أليست تنمية الاتجاه المحفز هو حجر الزاوية في إصلاح التربية؟ وبالنتيجة، لماذا الاستثمار في التدريب والتحكم في الكفايات المستعرضة وتنامي الانتظارات من البيداغوجيا التشاركية إذا لم يكن ذلك في سبيل تسهيل وضعية الانخراط في دينامية المشروع لدى أكبر عدد من التلاميذ بشكل يرتبط مع تكوينهم أو بتنمية مسار حياتهم؟ إن هذا يبرز حتمية مبدأ التعبئة الذي يمنح الرغبة في التعلم ويزكي الميل نحو المستقبل.

منهجية المقاربة الموجهة:

ينطلق فهمنا للعالم، وكما أوضحنا سالفا، من نموذج (Paradigme) الحال والمآل. إذ لا نتوقف عن الاستعلام حول الواقع وما يحدث فيه، ونصبح بهذا المعنى بعيدين عن المعرفة المجردة والمستدامة.

إن الأجيال الجديدة تريد أن تعرف من خلال الممارسة، فهي ترغب في تجريب كل ما ينبغي معرفته لرصد مختلف مظهراته وكذا حالاته الاستثنائية. إنها تهتم بكل ما يفرق

وبالتنوع في حد ذاته. واختصاراً، فكيفما كان الموضوع، فإن تعرف، في وقتنا الحاضر، معناه أن تجرب وبطرق مختلفة وفي ظروف متنوعة.

قبل عقد من الزمن، كانت لسيرورة التوجيه طبيعة تجريدية/تأملية (idéative)، فقد كان الأمر يستند إلى التفكير حول الذات وحول التمثلات المهنية التي تم بناؤها مباشرة من خلال الوثائق التي تمت مراجعتها. وتنشأ معرفة الذات بدورها من خلال مساءلة استبطانية حول مدى ملاءمة بعض السمات والصفات والاهتمامات والقدرات المكونة للهوية. إذ في العديد من الحالات، يكون من العدل الاهتمام بدرجة الثقة التي يمكن أن نمناها لهذه التأملات. إن مسألة التوجيه لم تكن يوماً سهلة، غير أن الأشخاص المعنيين بها اليوم وهم التلاميذ أصبحوا، بخلاف السابق، يستشعرون الحاجة إلى مزيد من التأكيد ويرغبون في المزيد من التجريب.

لقد أصبح التوجيه المثالي إذن توجيهها حقيقياً وفعالاً، ولأنه سيكون مرتبطاً بالفعل أكثر من ارتباطه بالتفكير، فإنه سيفقد مجالاً للتجريب والتقريب، وبالتالي غير مكتمل وغير نهائي. إن سيرورة التوجيه ستكون في حد ذاتها نوعاً من العمل المتنامي (work in progress) يمكن ترجمته عملياً من خلال إعداد مشروع منفتح. واختصاراً، يمكن القول أن كل معرفة أو كفاية أو تعلم ينبغي اكتشافه من خلال وضعية واقعية ومحسوسة ومجربة. إن وقتنا الحاضر يفرض أن تكتسب المعرفة من خلال سياقات متغيرة وقابلة للملاحظة عوض الاعتماد على تعاريف شكلية وفريدة وهو ما يسمى «بالتعليم المعبر» (apprentissage significatif).

لقد أصبح مفهوم السياق هو الكلمة الجوهرية للمقاربة الموجهة، وأضحى في نفس الآن منهجيتها. فعبر مبدأ التطعيم، يتولى المدرسون من مختلف المواد مضاعفة السياقات، بما يسمح بالنظر إلى المادة الدراسية بشكل مختلف، وبما يفتح الآفاق المهنية غير المنتظرة والمحفزة على الاستكشاف.

لكن السؤال المطروح هو: أيبقى الاستكشاف مثالياً فقط؟ لا، طالما أنه بالإمكان استقبال الآباء والعمال لتقديم شهادات حول تجاربهم، فالمعرفة يصير لها طابع تجريبي بفعل مبدأ التعاون. والشركاء الاقتصاديون ينظمون الأبواب المفتوحة ويمنحون فرص الزيارة والتدريب. لذا فالفاعلون من داخل وخارج المدرسة يتولون مهمة بناء السياقات ووضع سيناريوهات الأنشطة الموجهة.

إن المبدأ البيداغوجي الكامن خلف المقاربة الموجهة يترجم شيئاً فشيئاً كما يلي: لما كان التلاميذ مختلفون من حيث قيمهم وحاجاتهم وانتظاراتهم، فالأمر يقتضي بلورة سياقات

متعددة ومتنوعة بما فيه الكفاية، لتستجيب لاهتمامات أغلب التلاميذ، فيحصلون بذلك على إعلام مناسب.

إضافة إلى ذلك، فإذا كان السياق ملائماً لمجموعة من الأعمال والتفاعلات، فإنه يسمح للتلميذ بتجريب التعلم حول ذاته وحول طريقة توافقه وتعبئته في سياق معين، سواء تعلق الأمر بمشروع ينبغي تحقيقه أو بحدث يشارك فيه.

المقاربة الموجهة: الغايات

إن المبادئ الرئيسية المذكورة أعلاه، وكذا منهجية السياقات تشكل أدوات لبلوغ غاية معينة. والغريب أنها غير مصاغة بوضوح في الوثائق المتعلقة بالمقاربة الموجهة. فالغايات قد تكون متعددة، أو يمكن تأويلها بطرق مختلفة حسب السياقات التي تمارس فيها.

يرى البعض أن المقاربة الموجهة تعد التلاميذ للتوافق مع روح الاقتصاد الجديد والعودة. فالانفتاح على سوق الشغل ينبغي أن يتوقع ويأخذ في الحسبان التحولات والتوافقات في العلاقة مع سوق يتطلب الحركية والمرونة وتعدد التخصصات والتكوين المستمر.

لقد بلغ الحماس بمسيرى المقاولات درجة رسم الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الطالب المتخرج خلال السنوات المقبلة، إذ يجب أن يكون ذا مستوى دراسي عال، متقنا للغتين ومن الأفضل ثلاثا، مستأنسا بالتنوع الإثني والثقافي، متحكما في البرامج المعلوماتية، قادرا على الاشتغال ضمن فريق، منخرطا في ثقافة المقابلة، ممتلكا لحس خدمة المستهلك ومتوصلا بسهولة. إن ما يمكن تسميته بسحنة القابلية للتشغيل (Profil d'employabilité) يتمتع بشعبية كبيرة في الأوساط الجامعية ولدى أصحاب القرار بالوسط التربوي.

لقد كان هذا سائدا خلال نهاية سنوات التسعينات حين كانت البطالة المزمنة تعيث فسادا في الأرض، وكان البعض يشكك في إمكانية الحصول على عمل ولو بشهادة الميتريز. وتراجعت قيمة الدبلوم بشكل عام وأصبحت المؤهلات مستعملة بشكل غير كامل، إن المقاولات كانت محظوظة في تلك الفترة حيث تمكنت من فرض قواعدها ومتطلباتها.

إلا أن معطيات السوق قد تغيرت حاليا، فبداية نجد أن اقتصاد المعرفة لا يتطلب من الجميع المرور عبر ميدان التكنولوجيا العالية، أولا لأن تدهور البورصة جعل قطاع الإعلام والاتصال أقل سيطرة على السوق. وثانيا لأن شيخوخة الساكنة النشيطة تفرض معدل تعويض يغطي على الأقل نصف فرص الشغل التي يتم خلقها، وثالثا لأن الأجيال الجديدة لا يمكنها تغطية مناصب الشغل المستحدثة بفعل التراجع الديموغرافي. لذا ستكون للشباب

فرصة الاختيار في مختلف قطاعات الشغل تقريبا. فهم محظوظون بنويوا دونما حاجة لإعدادهم خصيصا للواقع الاقتصادي الجديد وعملة الأسواق. طبعاً ينبغي إعداد أطر مكونة في مجالات العلوم والتكنولوجيا، لكنه أضحى من الضروري في نفس الوقت إعطاء أهمية كبرى للتكوين المهني وللحرف شبه المتخصصة.

يرى البعض أنه على المقاربة الموجهة أن تسمح للتلاميذ بالتفكير في المهنة المرغوب فيها وذلك بأقصى سرعة ممكنة. لأن وجود مشروع للحياة هو الذي يحفز التلميذ، في النهاية، على النجاح في دراسته. هذا الاستدلال يبدو منطقياً بشكل كبير لكنه لم يخضع لمحك التحليل. إذ كلما كان الفرد صغير السن كلما تقلصت فرصة ارتباطه بهدف بعيد المدى. فهناك إذن نوع من التناظر بين الرغبة في تملك مشروع ما وإمكانية تصوره في سن مبكرة، إضافة إلى تأثير ذلك في تشكيل الهوية.

إن من يوافق على هذه الغاية لا يؤمن بها حقيقة، لأنه في واقع الأمر يستعمل المهنة المرغوب فيها كتمرين يتم تجديده من سنة لأخرى. واتضح على أنه يوظفها كحجة للاستكشاف ولعب الأدوار، وذريعة للتجريب وأهداف التكوين. وبالنهاية، فإن التلميذ يعدل من حين لآخر طموحاته ويقيم ذاته. وبهذا المعنى تظهر تلك الغاية على أنها إجراء خاص بالحاضر.

أليست الغاية الحقيقية للمقاربة الموجهة هي إعداد توجيه يتم بالتوازي مع التجربة وتقدم المسار الدراسي؟ أليست إيجاد أفضل الشروط للنجاح بما في ذلك الاتجاه المحفز ومنح التلميذ إمكانية تجريب الكفايات المدرسية والمهنية التي هو قادر عليها؟

إذا كان التوجيه هو فقط مسألة اختيار مهنة، فليس هناك مبرر لرهن التلميذ منذ الابتدائي وحتى نهاية الثانوي. إن إعادة موضعة التوجيه ضمن منظور استشاري للنجاح المدرسي والمهني تظهره على أنه الطريقة التي يتم بواسطتها تطوير الوضعية الشخصية والمهنية للتلميذ نحو شروط أكثر تلاؤماً، حيث تصبح الغاية تمكين التلميذ من التقدم، والرفع من قدرته على التحكم في الاختيار.

إن الاختيار الذي نحن بصدده ناتج عن سلطة نمتلكها بل ونعمل بصفة خاصة على تنشيطها وتحسينها. ومن هذا المنطلق يمكن تبرير وظيفة توجيهية طويلة البرنامج الدراسي، وهي الوظيفة التي يمكن مماثلتها بما يطمح إليه المدرسون لفائدة تلامذتهم. كما أنها تعبر عن الفكرة الأساسية للإصلاح من خلال اهتمامه بإبراز القدرات واكتساب الكفايات المستعرضة لأنها في الواقع تشكل الكفايات السياقية التي بواسطتها يفكر التلميذ في نفسه، يعبر، يتواصل، يفاوض، يتعاون، يعالج المعلومة، يستعمل موارد الوسط، يتصرف بشكل استراتيجي من أجل

حل المشاكل ويتدخل بفعالية. باختصار إنها الكفايات التي تضمن دينامية نمائه المهني في علاقته بما يمكن أن تكون عليه مختلف أوساط العمل.

يحيل كل من النجاح المدرسي والمهني إلى الكفايات المستعرضة التي تمكن الفرد من بناء ذاته كشخص، ومن التناسق المفيد مع المحيط، والمساهمة فيه والاستفادة القصوى منه.

إذا نظرنا إلى المقاربة الموجهة على أنها مقاربة تسعى إلى توفير أفضل الظروف للفرد عبر تجربة مختلف سياقات الاستكشاف والتعلم، وعبر اكتساب الكفايات التوافقية، وعبر قراءة جيدة للتفاعلات مع المحيط (سواء كان أسريا أو ثقافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا)، وعبر حافزية أكبر للنجاح من خلال منح ذاته السلطة والمستقبل؛ إذن فالمدرسة الموجهة تجمع هدفين، ظلا إلى حدود الآن منفصلين، ويتمثلان في تحقيق اختيار ذاتي مهني موفق، وتحقيق ربح جماعي مرتبط بالتأهيل الاجتماعي لغير المحظوظين.

إذا كان على المقاربة الموجهة أن تختزل في كونها تذكير ثابت بضرورة القيام باختيار مهني من خلال إيجاد معادلة بين السحنة الشخصية وبعض المهن، فهي بذلك تجازف بالإعراض عن الفرصة الفريدة الممنوحة لها من أجل التجديد فعليا. فخلافا للرأي السائد، ليس مؤكدا أن اختيار المهنة (carrière) يمتلك الفضيلة التعبوية المفترضة، كما أن هذا الاختيار لا يضمن للفرد إمكانية اغتراف الحافزية الضرورية للنجاح والرضى عن الجهود إلا إذا كان منخرطا في تكوين متخصص أو مقبلا على ذلك.

إن الاختيار المهني ليس بالضرورة دافعا للتحفيز بل يشكل المحصلة. وعلى الأصح، فإن الاتجاه المحفز والرغبة في تحسين ظروف الاختيار المهني هي التي توحى بمسار التوجيه. فالمقاربة الموجهة تقتضي الانتقال من فعل التوجيه إلى التوجيه الفعلي القائم على نشاط الذات ومبادرتها.

خلاصة القول، فإن المقاربة الموجهة تجعل الشباب يضع أهدافا وتحديات أكبر على المدى القصير في سياقات داخل وخارج المدرسة. يتعلق الأمر بالنسبة لهم بتوجيه فعال يضعهم في علاقة مع وضعيات حقيقية بإمكانهم استكشافها بل وأكثر من ذلك تجريبها، مما يؤدي بهم إلى معرفة الذات وفهم أفضل للمتطلبات والكفايات المرتبطة بالنجاح المدرسي والمهني. وهذا يشكل الحد الأدنى المنطقي الممكن انتظاره من مقاربة موجهة تمارس في الابتدائي وبداية الثانوي. بالطبع سيفرض بعد ذلك بالنسبة لغالبية التلاميذ وخاصة في السلك الثاني الثانوي ضرورة تقييم «الرأسمال المهني» (vocationnel) واستخلاص النتائج فيما يرتبط باختيار المهنة وبمشروع التكوين المهني.